١ً حياته :

١ – نشأته : أبو الوليد حسَّان بن ثابت من قبيلة الخزرج التي هاجرت من اليمن الى الحجاز واقامت في المدينة مع الاوس. فوُلد حسان في المدينة قبل مولد محمد بنحو ثماني سنين، وشبّ في بيت وجاهة وشرف منصرفاً الى اللهو والشرب والغزل. وكانت المدينة في الجاهلية ميداناً للنزاع بين الاوس والخزرج، تكثر فيها الخصومات والحروب؛ وكان قيس بن الخطيم شاعر الاوس، وحسان شاعر الخزرج يدافع عن قومه ويفاخر بأمجادهم، فطارت له في البلاد العربية شهرة واسعة.

٢ – شاعر الملوك: واتصل بالغساسنة ملوك جلّق يمدحهم بشعر جيّد، ويتقاسم هو والنابغة الذبياني وعلقمة الفحل وغيرهم من شعراء البلاط، أعطيات بني غسان؛ وقد طابت له الحياة في ظل تلك النعمة الوارف. ثم اتصل ببلاط الحيرة وعليها أبو قابوس النعمان بن المنذر الرابع فحلّ محلّ النابغة، حين كان هذا في خلاف مع البلاط، الى ان عاد شاعر ذبيان الى ظلّ أبي قابوس، فتركه حسان مُكرَهاً؛ وقد أفاد من احتكاكه بالملوك معرفة بالشعر المدحيّ واساليبه، كما افاد، وهو في قبيلته، معرفة بالشعر الهجائي ومذاهبه. وهكذا كان في تمام الأهبة للانتقال الى ظلّ محمد نبيّ الاسلام، والمناضلة دونه بسلاَحي مدحه وهجائه.

٣ – شاعر الاسلام : ولما بلغ حسان الستين من عمره دخل الاسلام، وراح يردُّ هجمات القرشيين اللسانيّة، ويدافع عن محمد والاسلام، ويهجو خصومهما. فأثنى محمد على شعره، وعطف عليه، وقرّبه منه، وقسم له من الغنائم والعطايا، ووهبه «سيرين» اخت «مارية» القبطية أم ولده ابراهيم، كما وهبه قصراً بالمدينة كان ابو طلحة قد وقفه على آل محمـــد. إلا ان ابن ثابت كان جباناً فاكتفى بالشعر ولم ينصر محمداً بسيفه، ولم يجرؤ على مرافقته الى الحروب، ولم يشهد مشهداً ولا غزوة.

وبعد وفاة محمد اهتمّ حسان لشؤون الانصار في نزاعهم مع المهاجرين على السلطة الزمنية والدينية، وانحاز الى عثمان بن عفان فندبه. وحثّ على الاثار له متهماً علياً.

ثم التصق بمعاوية فأكرمه إكراماً جزيلاً ، وتوفي حسان نحو سنة ٦٧٤ م / ٥٤ هـ في عهد معاوية .

٢ً آثاره :

١ – **ما هي** : لحسان بن ثابت **ديوان** شعر طُبع مراراً منذ اواسط القرن التاسع عشر في الهند وتونس ومصر وطبعته لجنة تذكار جيب بتحقيق هرشفيلد في لندن سنة ١٩١٠ .

٢ – **صحة نسبتها اليه** : لمـــا كان لحسّان بن ثابت موقف خاص من الوجهة السياسية ومن الوجهة الدينية ، دُسّ عليه كثير من الشعر المنحول ، قام بهذا العمل اعداء الاسلام ، كما قام به بعض كتّاب السيرة من مثل ابن اسحاق . ولم يفُت الامر ابن هشام (٨٣٣ م / ٢١٨ هـ) جامع السيرة وملخصها ومهذبها ، فذكر كثيراً مما اختُلق ودُسّ على الشاعر .

٣ – **اغراض شعره** : اكثر شعر حسّان في **الهجاء** ؛ وما تبقّى في **الافتخار** بالانصار ؛ **ومدْح** محمد والاسلام ، والغساسنة ، والنعمان بن المنـــذر وغيرهم من سادات العرب وأشرافهم ؛ **ووصف** مجالس اللهو والخمر ، مع شيء من **الغزل** . وتسهيلاً للبحث سنقسم هذه الدراسة الى أقسام اربعة : **حسان شاعر القبيلة** . ونتوقف في هذا القسم على الفخر في نزعته الجاهلية ، **ثم حسان شاعر التكسّب** ، ونتوقف في هذا القسم على المدح التكسبي في البلاط خصوصاً ؛ **ثم حسان شاعر الاسلام** ، ونتوقف في هذا القسم الثالث على شعر حسان الديني والسياسي ؛ اخيراً **حسان شاعر اللهو** ، ونتوقف في هذا القسم الاخير على بعض شعره في الغزل والخمر . وبعد ذلك نلقي نظرة على **قيمة شعر حسان الفنية والتاريخية** .

٣ً **حسان شاعر القبيلة** : قبل ان يدخـــل حسان في الاسلام كان منصرفاً ، شأن سائر شعراء الجاهلية ، الى الذود عن حياض قومه **بالمفاخرة** ، فكان شعره **شعر النضال القبَلي** تغلب عليه صبغة **الفخر** .

اما الداعي الى ذلك فالعداء الذي كان ناشباً بين قبيلة الشاعر وقبيلة الاوس ؛ فقد هبّ في وجه شعرائها ولاسيما قيس بن الخطيم . وقد طالت المنافسة بين حسان وقيس ينشر كل منهما مثالب قوم الآخر ويفخر عليه وعلى قومه . ويقوم فخر حسان في هذا العهد على **ذكر الشجاعة والكرم وشرف الاصل والنسب** بعد مقدمة غزليّة على ما عهدنا عند الشعراء الاقدمين ، وان في فخر حسان لنفحةً عالية ، واندفاعاً شديداً . قال في رده على قيس بن الخطيم :

لَعَمْرُ أبيكِ الخيرِ يا شَعْثَ ما نَبا ... عليّ لساني في الخُطوبِ ولا يَدي (١)
لِساني وسَيفي صارِمانِ كِلاهُما ... ويَبلغُ ما لا يَبلغُ السَّيفَ مِذوَدي (٢)
وإنّي لَمُعطٍ ما وَجدتُ، وقائلٌ ... لموقدِ ناري ليلةَ الرّيحِ: «أوقِدِ»
وإنّي لَحُلوٌ تَعتريني مَرارةٌ ... وإنّي لَتَرّاكٌ لِما لمْ أُعوَّدِ.

٤ حسان شاعر التكسب : اتصل حسان بالبلاط الغساني والبلاط اللخمي، فمدح كثيرين من امراء غسان اشهرهم عمرو الرابع ابن الحرث السادس (٥٩٧) وأخوه النعمان السادس المعروف بأبي كرب (٦٠٠) ولاسيما جبلة بن الايهم. وقد قرّب الغساسنة الشاعر واكرموه وأغدقوا عليه العطايا وجعلوا له مُرتَّباً سنوياً. وكان هو يستدر ذلك العطاء بشعره :

يُغشَونَ حتى مـا تَهِرُّ كِلابُهم ... لا يَسألونَ عَنِ السَّوادِ المُقبِلِ (٣)
يَسقونَ من وَرَدَ البريصَ عَليهِمِ ... بَرَدى يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلسَلِ (٤)
بيضُ الوُجوهِ، كريمةٌ أحسابُهم ... شُمُّ الأنوفِ مِنَ الطِّرازِ الأوّلِ.

(١) شَعْث : أي شَعثاء ، وهي المرأة التي يتغزّل بها . نَبا : كَلّ . (٢) المِذود : أي اللسان الذي يذود ويردّ القول (٣) يُغشَون : يُقصَدون ويؤتَون . حتى ما تهرّ كلابهم : اي ان الاضياف يكثرون التردّد عليهم ، فكلابهم لا تنبح احداً لانها اعتادت مرأى هذه الوفود (٤) البريص : نهر يتشعّب من بردى . بردى : أي ماء بردى . يُصفّق : يُمزج . الرّحيق : الخمر . السّلسل : السهل في الحلق .

ومدح حسان ايضاً النعمان أبا قابوس ملك الحيرة ، ولقي عنده حظوة .

واسلوب الشاعر في مدحه هو الاسلوب القديم يستهله بالوقوف على الاطلال والانتقال منها الى الممدوحين ، ثم ايراد الذكريات التي تبين فضلهم وصفاتهم المحببة ، وهو يتبع في ذلك وحي الخاطر من غير ما ترتيب ولا تنسيق .

وفي هذا الشعر المدحي فخامة وجزالة .

٥ — حسان شاعر الاسلام : نصب حسان نفسه للدفاع عن الدين الجديد والرد على انصار القديم؛ وقد نشبت بين الفريقين معارك لسانية حامية ، فكان الشعر شعر نضال يُهجى فيه الاعداء ويمدح فيه رجال الفريق ؛ ولم يكن المدح ولا الهجاء للتكسب او الاستجداء بل للدفاع عن سلطتين دينيتين وعن حكمين مختلفين تتنازع البقاء. ومن ثم اصطبغ الشعر بصبغة السياسة فكان شعراً سياسياً حقيقياً .

١ — اما المدح الذي نجده في شعر حسان لهذا العهد فهو مقصور على محمد وخلفائه وكبار الصحابة ، والذين أبلوا في الدفاع عن الاسلام بلاء حسناً . وهو يختلف عن المدح التكسبي بصدوفه عن التقلب على معاني العطاء والجود وما اليه ، والانطواء على وصف الخصال الحميدة ورسالة محمد وما الى ذلك مما ينبثق من العاطفة الحقة والعقيدة النفسية ، قال حسان :

نَبِيٌّ أَتانا بَعدَ يَأْسٍ وَفَترَةٍ مِنَ الرُّسلِ ، والأوثانُ في الأرضِ تُعبَدُ[1]
فأمسى سِراجاً مُستَنيراً وهادياً يَلوحُ كما لاحَ الصَّقيلُ المُهَنَّدُ[2]
وأنذَرَنا ناراً ، وَبَشَّرَ جَنَّةً وَعلَّمَنا الإسلامَ ، فاللهَ نَحمَدُ[3]
وأنتَ ، إلهَ الخَلقِ ، رَبّي وخالِقي بذلكَ ما عُمِّرتُ في النّاسِ أَشهَدُ

(١) بعد فترة من الرسل : اي بعد زمن لم يأتِ فيه رسول (٢) مستنيراً : اي منيراً . الصقيل : السيف المصقول (٣) أنذرنا ناراً : خوّفنا من الوقوع في النار أي في جهنّم .

ويلحق بهذا المدح رثاء محمد، فقد ضمّنه الشاعر لوعةً وذَرْفَ دموعٍ حارة، وتذكراً لافضال رسول الدين الجديد، وحنيناً للقائه في النعيم :

مَعَ المصطفى أرجو بذاكَ جِوارَهُ ... وفي نيلِ ذاكَ اليومِ أسعى وأجهَدُ

٢ — وأما الهجاء النضالي فقد وجهه الى القرشيين الذين قاموا في وجـه الدين الجديد يحاربونه ويهجون محمداً. وكان موقف الشاعر تجاههم حرجاً لما بينهم وبين محمد من نسب. ويُروى انه لما عزم على هجائهم قال له محمد : « وكيف تصنع بي ؟ » فقال : (أسلّك منهم كما تُسلّ الشعرة من العجين) فجعل له محمداً أبا بكر مرشداً يدله على من يستطيع هجوه منهم، ويفصّل له أنسابهم فحصر حسان كلامـه في المشركين من قريش عامة، وفي أشدهم على محمد خاصة من مثل أبي جهل، وأبي لهب، وأبي سفيان بن الحرث.

أما اسلوبه في هجائه هذا فلم يكن طعناً في أصل قريش ونسبهم، بل كان الشاعر يعمد الى الواحـد منهم فيفصله عن الدّوحة القرشية، ويجعله فيها طائراً غريباً يلجأ اليها كعبد او دَعي او متبنى، او يجعله غصناً مريضاً منفسداً، ثم يذكر نسبه لأمه فيطعن به طعناً شنيعاً؛ ثم يسدّد سهامه الى أخلاق الرّجل وعرضه فيمزقها تمزيقاً في اقذاع شديد، ويُخرج ذلك الرجل موطناً للؤم والجهل والبخل والجُبن، والفرار عن إنقاذ الاحبّة من وهدة الموت في المعارك. واكثر ما يذكر من ذلك موقعة بدر وهزيمة قريش فيها. قال يهجو بني سهم بن عمرو بن هصيص، وعمرو ابن العاص بن وائل :

واللهِ ما في قُرَيشٍ كلِّها نَفَرٌ ... أكثرُ شيخاً جباناً، فاحشاً، غُمُراً (١)

هُذُرٌ، مَشائيمُ، مَحرومٌ ثَوِيُّهمُ ... إذا تَروَّحَ مِنهُم زوَّدَ القمرا (٢)

---

(١) الغُمر : الجاهل الغِرّ من لم يجرّب الامور (٢) الهُذر : الذين يخلطون في منطقهم ويتكلمون بما لا ينبغي. المشائيم ج مشؤوم وهو الذي يجرّ الشؤم. ثويّهم : ضيفهم المقيم عندهم. تروّح : سافر في الرواح اي العشيّ. يقول : انهم كثيرو الهـذَر، جلابو الشؤم، يظلّ ضيفهم محروماً، واذا سافر عنهم زوّدوه القمر.

كَمْ مِنْ كَرِيمٍ يَعضُّ الكَلْبُ مِئْزَرَهُ   ثُمَّ يَفِرُّ إذا أَلقَمْتَهُ الحَجَرا[١]
لَولا النَّبِيُّ ، وقولُ الحَقِّ مَغضَبَةٌ   لَما تَرَكْتُ لَكُمْ أُنثى ولا ذَكَرا[٢]

وإننا لنلمس في شعر النضال الديني والسياسي هذا **صدق اللهجة وحرارة الرجل** الذي يُدافع عن امر يجعل نفسه فداءً له :

فإنَّ أبي ووالدَهُ وعِرضي   لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنكم وِقاءُ[٣]

٦ **حسّان شاعر اللهو** : كان حسّان متوفّراً على شرب الخمر والاستمتاع بالغناء وما يتبعه من لهو وعبث ، ولا سيما قبل دخوله الاسلام. وله في الخمر أوصاف شهيرة تأتي خصوصاً في مدائحه لملوك غسان ، كما له غزل بشعثاء وعمرة ؛ وشعره هذا غير مستقل يختلط عادةً بالفخر والمدح . **وغزله تقليدي** في معانيه وصوره ؛ **وخمرياته تُقال للفخر** على عادة الجاهليين ، وهو يصف فيها الخمر المعتّقة وشربها وبعض مفاعيلها ، والساقي ، وذلك بشغف يُلمس حتى في الالفاظ :

ولقد شَرِبتُ الخَمرَ من حانُوتِها   صَهباءَ صافيةً كطَعمِ الفُلفُلِ[٤]
يَسعى عَليَّ بكأسِها مُتَنَطِّفٌ   فيعلُّني منها ، ولو لم أُنهلِ[٥]
إنَّ التي ناوَلتَني فرَدَدتُها   قُتِلَت -قُتِلتَ !- فَهاتِها لم تُقتَلِ[٦]

☆ ☆ ☆

تَدِبُّ في الجسمِ دَبِيباً كما   دَبَّ دَبًى وَسطَ رِقاقٍ هَيام[٧]

(١) المِئزر : ما يستر الانسان من الثياب . يفرّ : الضمير عائد الى الكلب (٢) المَغضَبة : أي السبب للغضب (٣) العِرض : موضع الشرف . الوِقاء : ما يُوقى به ويُحمى من الأذى . (٤) الصّهباء : الخمرة ، سُمّيت بذلك للونها الاحمر (٥) المتَنطّف : الذي يعلّق في أذنه القُرط اي الحلقة . يَعِلّني : يسقيني. أنهل : أشرب (٦) قُتِلت : مُزجت بالماء (٧) الدّبى : صغير الجراد قبل ان يطير . الرّقاق : الارض المستوية اللينة التراب تحته صلابة . الهيام : الارض ذات التراب يخالطه رمل .

٧ قيمة شعر حسان :

١ — **القيمة الفنيّة** : حسّان شاعر **شديد التأثر** ، قويّ العاطفة، يفوته التأني الزُهيريّ، ولهذا ترى شعره **يتدفّع تدفّعاً** ، متتبعاً في ذلك **الطبع والفطرة لا الصنعة والتعمّل** . ومن ثَمّ تلقى شعره خالياً من كل ما يتطلّب النظر الهادئ المتفحّص، **فمطالعُه مقتضبة اقتضاباً شديداً** يُسرع في الانتقال منها الى موضوعه الذي تَحتدم به نفسه؛ وانتقاله غير بارع عادةً يقول فيه : « دع هذا... » ثم انّ كلامه **يخلو من الترتيب والتساوق** لما في عاطفته من فَوَران ؛ وهذا الفوَران نفسه **يحول دون التنقيح والثقاف** . وقد نتج عن ذلك **لين وضعف** ، في شعره الاسلامي خصوصاً، لتقدّمه في السنّ ولما كان هنالك من احوال مثيرة للعاطفة وقد حمي النضال واستعر القتال ؛ ولانصراف الشاعر الى الارتجال والسرعة في القول والتدقيق الموضوعي بذكر الغزوات وارباها . وقد يكون بعض ذلك الضعف ناتجاً عمّا اضيف الى ديوان حسان من الشعر المنحول. ويخلو شعره كذلك من **الوصف والتمثيل** اللّذين وجدناهما في الشعر الجاهلي عموماً . إلا انه لا يخلو على كل حال من **الاندفاع العاطفي العنيف** ، **والصدق** في ذلك الاندفاع ، **وانتفاض العصَب** في الابيات التي تنطلق، احياناً كثيرة، كالسّهام، او كالسَّيل الذي يجرف السُّخط والهيجان، والكلام المقذع الذي يُهشّم تهشيماً.

واننا نلمس في كلام حسان **أثراً للدين الجديد وللقرآن** ، وذلك ظاهر **في المعاني** الجديدة من ارتياح الى المصير ، وتفصيل لبعض العقائد والشعائر من توحيد وتنزيه وثواب وعقاب . وذلك ظاهر ايضاً في **الالفاظ** التي اعطاها الاسلام إيحاء جديداً ودلالةً جديدة، ونثرها حسان في شعره . ولقد حقّ بعد ذلك ان يقال ان حساناً هو مؤسس الشعر الديني في الاسلام.

٢ — **القيمة التاريخية** : لشعر حسان ، فضلًا عن القيمة الفنيّة ، **قيمة تاريخية كبرى** ؛ فهو مصدر من مصادر تاريخ تلك الايام ، يسجّل مآتي الغساسنة ويصف غزواتهم وممتلكاتهم ؛ ويسجّل أحداث الفجر الاسلاميّ ويطلعنا على اخبار محمد في

غاراته وغزواته وفتح مكة، كما يطلعنا على اسماء الصحابة واسماء اعداء الاسلام . وهكذا كان حسان شاعراً ومؤرخاً كما كان شعره فاتحة للشعر السياسي الذي سيزدهر في عهد بني أمية .

بعض المراجع

١ً المراجع العربية :

محمد عبد المنعم خفاجي : الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام ـ القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٤٥ ـ ٢٩٧

فؤاد افرام البستاني : حسان بن ثابت ـ الروائع ٣٣ ـ بيروت ١٩٣٤

محمد خلف الله : شاعر الرسول ـ الثقافة في الاعداد ٢١١ (ص ٢٣)، ٢٢٠ (ص ٥)، ٢٢٢ (ص ١١) ، ٢٢٥ (ص ١٨) ، ٢٣٦ (ص ١٤) .

بطرس البستاني : ادباء العرب ـ الجزء الاول ـ بيروت ١٩٣٤ ص ٢٥١ ـ ٢٦٨ .

٢ً المراجع الاجنبية :

Brockelmann : Gesch. d. Arab. Litteratur, t. I, 37-38.

T. H. Weir : Hassān B. Thābit, in Encycl. de l'Islam, t. II, 306.

موضوعات للبحث

١ ـ ظهرت في شعر حسان آثار الجاهلية وآثار التجديد . اوضح ذلك ذاكراً الاسباب والشواهد.

٢ ـ شعر حسان مرآة تتجلى فيها أحداث حياته وأحداث البيئة التي عاش فيها . فصّل ذلك .

٣ ـ الفن عند حسان بن ثابت هو طبع مندفع وقريحة هائجة . وازن بينه وبين كعب بن زهير من هذا القبيل ، موضحاً الفروق بين فنّي الرّجُلين .